عـــودة الغـــريب

قصة بقلم رشاد ابو شاور

أخذ يتفرس ملامحها في الجريدة ، دون أن تريم نظراته عنها ، ثم سرح بعيدا .. بعيدا .. واخذت ذاكرته تنبش بحسرة في أعماق الايام .

بعد ان انهى دراسته الجامعية في دمشق وحصل على اجازة في اللغة العربية ، تقدم لخطبتها .. كانا يقيمان في « حارة النصارى » في القدس ، يلتقيان معا في أغلب الايام حين يذهبان الى العمل ـ كانت موظفة في البنك في اريحا ، وكان هو يتعلم في مدرسة مخيم عقبة جبر قرب اريحا ـ .. في كل مطلع نهار ، تقلهما سيارة الباص من القدس الى اريحا .. وتمر الايام .. تمر قاسية عليه ، ويفكر في مخرج ، يجب مصارحتها ، نحن لسنا صغارا لنخجل من حبنا ، يسأل نفسه ، الى متى تستمر لعبة النظرات ؟

في صبيحة احد الايام انتظرها في مكان غير بعيد عن « بيتها ».. وحين اقتربت ، شعر ان قلبه يخرج من حلقه ، وجاهد كي يخرج عن صمته ، كي يثبت لهـا رجولته وصادق مشاعره .. فكر . لنبـدا بالتحية ..

ردت عليه بهدوء . تناهى صوتها الى سمعه موسيقى عذبـة ، قصائد ربيعية واعدة . شد رأسه الى اعلى ليتملى وجهها العذب . كان وجهها القمري حزينا . عيناها العميقتا السواد تختزلان فـي غوريهما عذابات دفينة . وكأنما يراها للمرة الاولى ، وشعر تجاهها بالفة غامرة ، ودون مقدمات :

ـ آنسة وفاء .. اريـد .. اريـد .. ان .. ان اتقـدم لخطبتك .. وكي لا تفلت الفرصة من يده .. أردف :

ما رأيك ؟

فسألته على استحياء :

ـ وماذا تعرف عني ؟

ـ ما أعرفه يسعدني ويرضيني .. ألسنا ابناء حارة واحدة ..

أطرقت ، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عذبة حية تلاشت مع فيض الكلمات العذبة :

ـ اتعرف انني أعيل اسرتي ..

ـ أعرف ..

قالها حميمة ، صادقة ، فيها اكبار عميق . ولتفسير رأيـه فـي الموضوع اضاف : ـ بامكانك الاستمرار في العمل ، وتقديم مرتبك كاملا لمساعدة اشقائك ووالدتك ..

وتذكر فرحة اسرته يوم اخبرهم بانه ينوي خطبة (وفاء) .. ثم رنت الزغاريد .. وبعدها انتدب الى الكويت ، ليعمل هناك لمـدة سنتين ..

وينطلع الى الوجه ، ليشرب الحسرة ويقتله الالم ..

والدها استشهد في حيفا . وهي . يلقى عليها القبض فـي القدس ، بتهمة وضع المتفجرات في احدى دور السينما الاسرائيلية .. ويقرأ تحت الصورة (البطلة العربية وفاء عبد القادر أثناء محاكمتها).. ويغالب دمعة سخينة سالت على وجهه الصلب ، ثم يطوي الجريـدة ويأخذ في تجهيز سلاحه ويقول لنفسه : اليوم سأتحرك للاشتراك فـي العملية في القدس . ثم في نفس اليوم يأتيني الخبر .. ويزفـر بمرارة ..

وينتبه من شروده ، حين يفاجأ بآمر القاعدة يقف امامه ، ناظرا اليه باستغراب :

ـ ما بالك أخ عبد المحسن ؟

ـ لا شيء البتة ..

ـ وجهك ممتقع ، كأنك تعاني سكرات الموت . أضائق أنت بسبب المهمة التي ستشارك فيها ..

ـ ابدا .. ابدا يا أخ ..

وعاد آمر القاعدة يسأله بالحاح :

ـ أخ عبد المحسن ، هل عندك امور خاصة تود اطلاعي عليهـا ..

ـ لا .. لا ابـدا ..

ـ هل أعتبرك مستعدا ؟

ـ بلا ادنى شك .

بعد أن ابتعد آمر القاعدة قليلا ، عاد بسرعة ..

ـ أخ عبد المحسن .. نسيت ..

ثم مد يده الى جيبه ، واخرج رسالة :

ـ هذه لك ..

ففض عبد المحسن الرسالة . شرع في قراءتها :

عزيزي وصديقي :

وصلتني رسالتك ، وكم سررت حين علمت انك انضممت الـى الرجال الذين يمزقون ظلام ايامنا ، ويمحون العار عن جبيننا .. وهأنذا اكتب لك عما ازمعت القيام به .. ما ان وطئت اقدامي أرض الكويت ـ بعد أن خلفتك في عمان ـ حتى نشب في اعماقي صراع مرير ظـل يفترس حياتي طيلة فترة الشهور الماضية ، دون أن أعرف ما يتوجب علي فعله ، وما أن وصلت رسالتك حتى اتخذت قراري الحاسم بالعودة مع اسرتي ، للانضمام اليكم ..

تقبل تحياتي ، والى لقاء قريب في جبال السلط .

المخلص

عبـاس

طوى الرسالة،ووضعها بحركة متعبة داخل جيب قميصه العسكري الخشن ، وسرح في ذكريات حميمة مؤسية ..

اصطفوا في طابور طويل امام مكتب المنظمة . كانت السـيارات تقف مرسلة هديرها تحت شمس الكويت اللاهبة . ومن أجهـزة « الترانزستور » تنفجر اغان حماسية صاخبة . بين الفترة والاخرى يعلو صوت المذيع معلنا عن بدء المعركة ..

حملوا معهم القليل من المتاع والكثير من الامل . قال كل منهم في سره : لقد انتهت حياة الغربة ، تجلت على الوجوه فرحة غامرة طالما ظلت حبيسة في الاعماق تحت طبقة سميكة من الام الغربة والنفي .

تنبه عبد المحسن على صوت صديقه (عباس) . أخذا بعضهمـا بالاحضان :

ـ ها نحن نعود الى الوطن يا عباس .

قالها عبد المحسن بنشوة لا محدودة .

قال عباس :

ـ سنحمل السلاح ، ونساهم في المعركة . انا عائد معكم ، لن أبقى في الكويت .

بدهشة سأله عبد المحسن :

ـ واسرتك يا رجل ..

ـ سأنتظرهم في عمان ..

تحركت السيارة متثاقلة ، ثم اندفعت تنهب الدرب .. كانت القلوب تخفق ، والعيون تتطلع الى أمام كانما تحاول النفاذ من الظلام والمسافات لتصل الى أرض الوطن ..

آه يا صديقي عباس ، لم يكتمل الحلم ، تهاوى حين أعلن وقت القتال قبل وصولنا .. يومها صممت انا على البقاء . وعدت انت الى الكويت ، وظللت انا في عمان دون أن اعرف ما ينبغي علي فعله .. الاسرة والخطيبة في القدس . وعمان دائخة متعبة ، شوارعها تفص بالفارين والجنود المهزومين ..

شد عبد المحسن قامته ، سار باتجاه المغارة ليجهز سلاحه بانتظار لحظة الانطلاق .. عم الليل ثقيلا كثيف السواد .. وحول ضوء صغير اجتمعوا ، بينما أخذ قائد « الدورية » يشرح لهم طبيعة الاماكن التي سيمرون بها ، قبل الوصول الى الهدف النهائي قرب القدس .. حدث نفسه : سأصل القدس دون أن أراك يا وفاء ، ودون أن أكحل عيوني بمرأى حارتنا القديمة ..

حين أزفت الساعة تقدموا باتجاه النهر وعلى ظهورهم كانت حقائب محشوة بالمتفجرات والعتاد .. واصل عبد المحسن سيره وفي جيبه الجريدة التي تحمل صورة خطيبته ... من خلال الظلام لاح له وجهها القمري الحزين . يستمع في السكون الى آهاتها الملتاعة : آه يا قمري ، هل لامست أصابعهم جسدك . الذعتك سكائرهم وشتائمهم. قمري ، يا عذابي اشرق لحظة واحدة .. ها هي اقدامنا تعانق ارضنا بعد غياب طال . هاهو الغريب يعود حاملا النار والحقد والتحدي ..

أتستطيعين رؤيتي وانت في غياهب سجونهم ؟

قذف احدهم حجرا باتجاهه ، تنبه على الصوت ، لبث في مكانه، ثم قبض على سلاحه بانتباه شديد ، بينه وبين رفيقه مسافة عشرة امتار ، جاهد الا يرتفع صوته :

ـ محمود .. اهناك ما يريب ؟

ـ اش .. يبدو ان العدو قريب ..

وامطرتهم الرشاشات بزخات عنيفة من جهة الشمال .. اقترب منه محمود :

ـ يبدو انهم شعروا بحركتنا . أحدنا يجب أن يشتبك معهم كي يمكن الاخرين من مواصلة السير ..

ـ أنا .. انا سأشتبك معهم ..

قالها عبد المحسن باصرار .. وزاد انهمار الرصاص ، استلقى عبد المحسن ورفيقه على الارض :

ـ محمود .. محمود ..

ـ ما بالك ..

ـ واصل السير .. واصل .. سأشتبك معهم لاحمي تقدمكم ..

وهدر مدفعه بين يديه .. كان يتنقل من مكان الى آخر كي يوحي لهم بكثرة المشتبكين معهم .. أخذت كشافاتهم ترسل ضوءها صوبه .. اخرج من حزامه قنبلة وقذفها باتجاههم .. ادرك ان النهاية وشيكة ، لكنه قرر الصمود أطول وقت ممكن كي يتمكن الرفاق من النجاة .. اشتعل الليل بالنار ، وتحول الى جحيم رهيب يضج بالموت والكراهية .. قال عبد المحسن لنفسه : لا يهمني أن اموت ، المهم ان يصلوا ، أن تنوي الانفجارات غدا .. امطروه بوابل من الرصاص ، فسره انهم يركزون باتجاهه فاسحين المجال لرفاقه بالاستمرار الى هدفهم ، الذي كان يقترب كلما ساروا .

عمان

رشاد ابو شاور

العمل الفدائي

الباب ع

انه ارشاد تطبيقي ميسر لمزاولة حرب المقاومة الشعبية والعمل الفدائي على أرض يحتلها العدو ، ويرفض أهلوها الاستسلام . فيه نظرة تاريخية وتقييم ممتع للعمل الفدائي: أصوله، وطرائقه،والاساليب الاجدى في الدعوة اليه وممارسته والظفر بعد أدائه . وهذا ما نحن في الوقت الحاضر في أمس الحاجة اليه . فالمؤلف رجل خبر حرب المقاومة الثورية والانتفاض على مختلف أعداء الشعب في أميركا اللاتينية والحرب الاهلية الاسبانية ، وهو يضع جميع خبراته في متناول اليد لكل من يود الانتفاع بتجارب السابقين . كما ان الترجمة سهلة متبسطة لا يعتريها التباس .

انه كتاب كل مواطن ، الفدائي للمناقشة والتطبيق ، والمواطن العادي للتأهب كي يكون فدائيا يوما ما . لهذا نجده يشرح أفضل السبل لنصب الكمائن ولغم العربات المجنزرة ونسف مستودعات الذخيرة والتخلص من أفراد دوريات العدو . وفيه كيف يعيش الفدائي ورجل المقاومة ، وماذا يلبس في كل فصل ، وكيف يسلك مع الغير .

انه ثروة جاهزة للاخذ والتطبيق .

الناشر : دار الآداب بالاشتراك مع دار العلم للملايين

الثمن ٢٠٠ ق.ل.